

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كُتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم
أكتب اليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها الى الرشيد . فاني لما قفلتُ
من ديار الروم عرَّجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن
ابن الأغلِب وفادتي ، وأخرج الى زورقا حملني عليه الى المدينة ، لأن البحر
يُبعد عنها نحوَ عشرة أميال ،^(١) وبينهما بحيرة قريبة الفَور فسبق اهتمامي
باخراج الرِّمَّة التي أوصاني بها القيصر الى مركب الروم لابعادهم عن مرقأ
المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور . ثم إنني نظرت في شأن ابن الأغلِب
ابراهيمَ واتقطع أهل الشيعة الى حوْزة ادريس بن ادريس (رضى الله
عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، اذ كنت
أوجبت على نفسي أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي
حملني مجاشمها واستودعني فيها أمانته ، فاتصل بي من أخباره معهم جسيماً
حملت خبره الى ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) . وقد أذكرني حال العلويين
في المغرب أيام عليّ وأبي بكر وعمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنهم)
من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي
(صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبهة الملك إلا ما تدعوهم اليه حاجة
الخلافة ، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظه
على القراءة التي قرأها عليّ (عليه السلام) . إلا أن الأعلى (دمر الله ملكه)

ينقم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرسون على الخير
والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .
وهذه القراءة التي ينقمها الأغلب من أهل الشيعة قد كان لها شأن
عظيم في صدر الاسلام واسالت من دماء المسلمين يجاراً بما تعصوا له من
الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة
أبي بن كعب ، وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد
انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن
المقداد بن الأسود ، وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلساً من الصحابة على
أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الأقاليم والأطراف ، فجمع الرِّقاع
والأدراج واللخاف والمُسب التي كان مكتوباً فيها القرآن الكريم ، وأمر
بأن تحرق كلها وأن يُنسخ من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر
(رضى الله عنه) ، وكانت مودعة عند حفصة^(١) زوج النبي (صلى الله عليه
وسلم) أربع نسخ^(٢) يبعث بها إلى الديار الاسلامية ، فتولّى نسخها زيد
ابن ثابت الأنصاري^(٣) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن
ابن الحارث بن هشام المخزومي . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر^(٤)
وقال لهم عثمان إن اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل
القرآن بلغتهم .^(٥) ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام
والكوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة فانه فقد في الحرب التي أثارها
زيد بن معاوية .

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء

١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندي (٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر تَوًّا الى الاسكندرية وفي نفسى
أن أبلغها في عشرين يوماً ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة
ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدا نثار النوء
وطابت لنا الرياح ، فسرنا بعمونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس .
والقُطر المأنوس . لليال خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار اتصب أمامنا
في عِظْمِهِ وهَوْلُ مرآه^(١) حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء ، ويصل بين
الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا يُنال طويلُ
فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين
ميلا ، وربما قدر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعاً ،^(٢) وهم يقولون
إن بانيه الاسكندر الرومى الذى ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه
يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروباً صعباً في البر والبحر ، فبناه
لارتقاب جندهم والاستعداد لمرآكهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد
ابن عبد الملك الأموى^(٣) أنه سؤل له جهلة قومه أن يهدمه طمعاً في
الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز الخبئة ، فشرع فى الهدم والدمار حتى
قوض جانباً من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيض

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩٠ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤ (٢) تقويم
البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علواً كما ذكره
يقول ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس
المنارة وربما ذكر المقرئ شياً من ذلك فى كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى
٦ : ٦٤ أن طولها ألف ذراع الى غير ذلك (٣) المقرئ والمخاضرة ١ : ٤٣
والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

به عنها فكف عن عجز لحقه ولو لم نراه يستحقه . وكان مقامى فى الاسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأيوبرى^(١) ثلاثة أيام، وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمدت فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت فوات الحج ، فانصرفت عنها فى اليوم السابع من شوال ، وكنت قد استقرت كثيراً من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمل الكتاب بذكره ليبقى فخراً للمسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس أعظم منها فى ديار الروم .

فى ذكر الاسكندرية

الاسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضماً وأحفلها بنياناً ، والىها انتهى فى المنعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض ، والبحر يحيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو وان لم يكن وراءها وعرو ولا هضاب يتعزز به جانبها من البر ،^(٢) ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة^(٣) فلما تبوأها الاسكندر الرومى^(٤) وصارت كرسى الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتجلت بجلل الحضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض^(٥) آزاجا يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها فى نهاية من الأبداع ،^(٦)

(١) ذكر أبو محاسن ١ : ٥٢٣ انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة

(٢) يقول ابن خلدون فى المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه يسهل طروق العدو لها

(٣) المقرئى ١ : ١٤٧ (٤) القزوينى ٩٦ (٥) ابن جبير والمقرئى ١ : ١٥٠

(٦) ابن جبير ٣٦

وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمعَ فلا يضل^(١) .

ولقد لقيت في كثير من أماكنها وطرقاتها عمداً وألواحاً من رخام تحمل العمامة على الظن بأنها هي إرم ذاتُ العماد^(٢) التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السواري^(٣) وهو مائل للعيان في طرف المدينة تحفُّ به غابة من النخيل ، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر ، يتدىء من قاعدة غليظة وينتهي إلى تاج مكمل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان في أعلاه قصر معلق في الجو لأهل العلم والرياسة ،^(٤) وإنه كانت فيه خزائن كتب أحرقتها عمرو بن العاص^(٥) بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التي ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدم باعدامها » ولكن هذا قول ببيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضةً للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعاً في تخليد آثارهم في مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الاسكندرية إصحاء الذوق لطاف الطباع والخُلُق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبأ عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وهنُ البنية^(٦) . ووجدت لهم تصرفاً

(١) تقويم البلدان ١١٣ (٢) المقرئى والمسعودى وياقوت وابن جبير

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧ (٤) المقرئى ١ : ١٥٩

(٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقرئى (٦) المقرئى ١ : ٤٤

واسعاً في التجارة ،^(١) لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم في النهار ،^(٢) وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان^(٣) ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

أما المسلمون في هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الامام مالك ،^(٤) ولكنهم يجهرون بالبسملة في صلاتهم ويتقدمون بها عند الخطبة^(٥) كأني بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمراً على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على أربعمائة ألف^(٦) بين نصارى ويهود ، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونياً^(٧) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك في عهد الخلفاء السالفة ، وهم في الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم^(٨) روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبض ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون في ملتهم إلى بطرك لهم يسمى مرقص^(٩) كرجوع المشاركة إلى بطركهم في أنطاكية^(١٠) كما مر في موضعه من الكتاب . وهؤلاء القبض هم أهل مصر الأولون ، وفي أيديهم الكنائس المعظمة

(١) المحاضرة (٢) ابن جبير ٣٩ (٣) المقرئ والمخاضرة ١ : ٥٩
والقرماني ٥ : ١٣٧ (٤) المقرئ (٥) المقرئ ٣٣٤ (٦) ابن خرداذبه
١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقرئ ١ : ١٦٢ (٧) ذكر صاحب الأغاني ان هذه
الدنانير سميت بالميمونية نسبة الى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢ (٨) المقرئ ٢ : ٤٩٢
(٩) ذكره المقرئ ٢ : ٤٩٣ (١٠) المسعودي ١ : ٢٧١

التي لا يوجد مثلها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين لها تحت ظل الأسلام . وأعظمها ييَعْتَان إحداهما كنيسة مرقص ^(١) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام ، ^(٢) فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان ^(٣) قد مَوَّهَ سقفها بالذهب ، وصُوِّرَتْ فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث ، ^(٤) وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في المراق أو الحرمين جلبت عليهم الحين في أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل واخراج آنتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح ^(٥) وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون ، ^(٦) وكأنهم إنما يتساحون في أمرهم تجنباً لاثارة السواكن أو طمعاً في استمرار الخُلُطَة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد ، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ، ^(٧) وعادتهم في هذا الموسم أن يُجَيِّؤا ليلهم كله بالسرور ، ويُخْرِجُوا آنتهم إلى الأسواق ، وينوروا كنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيراً

(١) المقریزی ٢ : ٤٩٢ (٢) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨

(٣) المقریزی ٢ : ٥١٩ (٤) القرمانی والمقریزی ١ : ١٦٢ (٥) المقریزی

(٦) المقریزی ١ : ٤٩٤ (٧) المسعودی ١ : ٢٧٢

من المسلمين يتعاونون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة ، كأنهم يشاركون النصارى في أفراحهم ، ويظهرون الأئس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأقنون في صنوف الملابس من الخرز والديباج والوشى الذى يصنونه في مدينتهم ، ويضرب به المثل في جميع البلاد ،^(١) ونوع من الكتان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المحيط منه بدرهم فضة^(٢) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين^(٣) مثل ظهورها في أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالخرير ،^(٤) ولبس ثياباً بأربعة آلاف درهم وصلّى فيها ،^(٥) وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخز ،^(٦) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهذبة ،^(٧) فلا أرى موضعاً بعد هذا لأن يكون لبسُ الحلل الفاخرة محظوراً في الشرع^(٨)

الديار المصرية والنيل

توسّع في الكلام إلى ما خرجت به عن اقتصاص الرحلة ، ولكنى أعود إلى ذكر الأمور التي شاهدتها في ديار مصر ، فاني ركبت من الاسكندرية أريد الفسطاط ثم أسوان ثم عيذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فررت بدمنهور وصا وبرما وطنتدة وقلوب في أسرع

(١) الأغانى : ٥٧٦ (٢) المقرئى ١ : ١٦٣ (٣) تزيين الأسواق ٢ : ٥١
(٤) مجمع الأنهر ٩٤ (٥) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيبانى عن ابن جريج
أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣
(٦) الزرقانى ٤ : ١٠٤ (٧) البخارى وغيره (٨) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

مدة من الزمان . اذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعريّ يترى الركبان . وكانت العمارة متصلة في طريقنا إلى الفسطاط ، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرني من كان يصحبني من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعمائة في كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ،^(١) أولها شهر أيب المعروف بتموز عند المشاركة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياءً في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق . وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابيه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر ،^(٢) ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طيناً علكاً أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبليز^(٣) وثلاثة أشهر زمردية خضراء أولها شهر طوبة الذي يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدى من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورد الزرع ببلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب في المنظر .

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجرّز ما يحمل إليها النيل من الطين ويفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستميط بالمنفعة منه عن الشتاء الذي يجبهه الله عنها رفقاً بمصالحها أن تختل ومساكينها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى في محم كتابه^(٤) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرّز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل

(١) المتوفى (٢) في المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلها هي اليوم عندنا

(٣) عبد اللطيف ٣ (٤) المتوفى

من الغُمُورة والاستبحار بحيث يكفي البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مَسِيل ماء غيره، والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة^(١): الأول غُمُورته إلى أن يكون بحراً تسير فيه السفن . والثاني بُعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيبُ مسلكه على رمال تروّقه وتأخذ المزوجات القريبة منه . وإني وجدتُ له خَلَّةً من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هي أنه يُزْدَرَع عليه ما لا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم^(٢) فكأني من نهر تجتمع فيه محاسن الغُمُورة وبعدُ المنفجر وطيبُ المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنه يبتدىء بالزيادة في شهر أيب، والقبط يقولون إذا دخل أيب . كان للماء ديب .^(٣) ثم يغلظ في مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادةً عظيمة إلى أن يقف حدُّها في منتصف توت ، وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالأنحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم^(٤)

كأنَّ النيل ذوفهم ولبَّ لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أن منشأه السحبُ الماطرة^(٥) إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح ، وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب ،^(٦) وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه »

(١) المقرئى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٣) المقرئى (٤) المقرئى (٥) تقويم البلدان ٤٥ (٦) راجع

المجلد الأول من خطط المقرئى

من هبوب الرياح في أول يوم من بؤنة وهو شهر حزيران عند المشاركة وقد قرأت في بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة،^(١) وأن حائداً اليهودى الذى تاه في الأرض دهرًا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان^(٢) فوجد أرضًا ذهبًا وترعًا ذهبًا وتلاعًا ذهبًا،^(٣) ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء فأحبيت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيداً عن أن تعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقلّ من كونك تُعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى القُسطاط نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه،^(٤) فلما أصبحت وكان يوم الجمعة جمعتُ في جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الاسلامية إلى هذه البلاد وأنزعتها من يد المقوقس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة في الاسلام حسناً وترويقاً وإحكام صناعة ، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوباً على ألواح بيض من الرُخام يقرأه الانسان وهو قاعد ،^(٥) ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبت الى موضع غربى المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهب والنزهة لاحاطة الماء به ، وهناك المقياس الذى يعتبره قدر زيادة النيل ،^(٦) بناه سليمان بن عبد الملك الأموى في آخر

(١) المقرئى ١ : ٥١ والزرقانى ١ : ٣٧٥ (٢) الاسحاقى ٢٦١ (٣) المنوفى

(٤) المحاضرة ٢ : ٨٩ (٥) القزوينى ١٥٧ (٦) المقرئى وابن جبير ٥١

المائة للهجرة النبوية المشرفة ، وهو عمود رُخام أبيض مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً من الأذرع القديمة التي كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها بأصبع وثلاث أصابع ،^(١) وهو مبنى في موضع ينحصر الماء فيه فإذا انتهى الفيض إلى ثمان عشرة ذراعاً منفرجة فيه كان ذلك النهاية في طيب العام^(٢) .

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضي النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مئة ألف فدان ،^(٣) والفدان عندهم أربع مائة قصب ، والقصبية عشر أذرع ، « وهو القدر الذي وجدته هشام بن عبد الملك عندما مسح البلاد » ، وكلها ذات خيرات كثيرة . وغلات وفيرة . مما يحمل الإنسان على أن يظن في أهلها اتساعاً في النعمة واسترسالاً في الطيبات من بسطة العمران ، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول^(٤) وتولاها الشقاء ، ولم ينفقوا المال الذي أعطاهم الله في مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقاً في جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقل عليهم في الخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً في تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

(١) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودي ٤٠ : ١ والمقرئزي ٥٩ : ١ (٢) ابن

بطوطة ٧٨ : ١ (٣) المقرئزي ٨٠ : ١ (٤) المحاضرة ٢ : ١٩١

(٥) المقرئزي ٥١ : ١ قول الرحالة مائة ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن

ما يزرع في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

في وصف الأهرام

وفي غد اليوم الذي وصلت فيه إلى الفسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة،^(١) وهي ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم^(٢) غربى النيل، وهي من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً. وأبقاه على الأيام أثراً. والعهد بجميع الأشياء يُخشى عليها من الأيام إلهذه الأهرام، فإنها صبرت على طوارئ الحدثن حتى راح يُخشى منها على الزمان. اثنان منها عظيمان وواحدونهما في العظم، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان في السمو، يُخيل للرأى أنهما نهدان قد نهدا في صدر الديار المصرية،^(٣) وهما مبنيان بحجارة بيض صلدة قد اقتلعت من مغاور تحت الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمه فيرتاح فيها. ولقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعده قوى فسقط السهم دون ثلث المسافة،^(٤) أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربعها، يتدنى من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهي إلى سطح صغير يكون مبرك بميرين في الهرم الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين. وهذا نمط في البناء يزيد متانة يقوى بها على ممر الليال.

أما السبب الذي دعا الفراغنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢: ١٠١ والمقرىزى (٢) هذا تشييه

لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨

(٤) ابن بطوطه ١: ٨٢

تحت ظل الابهام ، فن قائل إنها بنيت مستودعاً للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتحتجز الرمال الثائرة من القفر على الفسْطاط ، وفي وجه من التاريخ أنها بُنيت لدفن الكنوز^(١) واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام^(٢) ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة ان لم يُستودع صدور الرجال ، ولا مل لا يحجزه سد غير متصل العمارة ، وبين الهرم والآخِر فرجةٌ واسعة المجال ، والحب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا اقتضاه له وفي موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لُحوداً^(٣) للفراغة الذين كانوا يدينون بالرجعة الى هذه الدار ، ويُعنون بتحسين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حُلِيِّهم وأموالهم إلى يوم النشركما كان يصنع في جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون^(٤)

وقد قرأت في بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة في اعتقادهم وزبر عليه « أنا سوريد الملك أكلت بناء الهرم في ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا مثلي فليهدمه في ستين سنة (وفي رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البناء ، وقد كسوته بالديباج الصّرف فليكسه هو بالحصر والحصر أهون من الديباج » ،^(٥) أماتوجه

(١) المقرئى ٢ : ٢٢ (٢) المحاضرة ١ : ٣٤ (٣) المقرئى وتقويم

البلدان ١٠٨ (٤) عبد اللطف والمحاضرة (٥) ابن بطوطه ١ : ٨٢

زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو اقتراض ليس للرد عليه موضع مع مانع من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التي يمزونها إلى فرعون فاني لم أجد لها أثراً على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرأت كذا على الهرم ما صح أن تكون كسوته بالحصر مما يُعجز عظماء الملوك ، وسَمَّته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها (١) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء يتلاصق به من الكلس وغيره من المواد ، ولو أن نجاراً اتخذ صندوقاً من الخشب ما أحكم عمله (٢) ووصل قطعته مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الابرة الصغيرة

وربّ زائري قف بهذه الأهرام فتشغلّه الدهشةُ بعمقها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضيخام السلطة عظام الصوّل والحول . غير أنّي تمثّلهم في نفسى ملوكاً عُتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنّي أمثّلهم جبارةً قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والأحسان . ولا اتفعلوا به في غرض من العمران . بل فعوا به حبالا شاهقة من الصوّان . وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤمهم أو لؤم أوقمه عليهم ، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد

أسرفوا في الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم
بالعنت الشديده لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .
ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر
قامت كالصومعة ^(١) ومثلت رأس آدمى وعنقاً بارزةً من الأرض في غاية
العظم يسميها الناس بأبي الهول ، ويزعمون أنها طلسم الرمل لثلاثين على
أرض الجيزة ، ^(٢) وهى تشهد لصنّاع ذلك الوقت من القبط بحذقهم في
فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على
كبره ، وجملوا عليه حمرة لايزال دهانها محفوظاً مع الحجر ، ^(٣) وكان الزمان
يعيره روتقا وجدة ، حتى إنه ليُخيل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن
شفتيه تفتحان للابتسام ، وقد أخبرني حاجب الليث أنه كانت له لحية
تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى
القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعاً ، ^(٤) الى حديث
طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف
الناس بالبلاد ^(٥) إن بمصر ثمانين كورة في كل كورة مدينة عظيمة وفي كل
مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان ^(٦) .

(١) المقرئى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠

(٢) القرماني ٦ : ٥٥

(٣) عبد اللطيف ٥٩ (٤) عبد اللطيف ٥٩ (٥) المقرئى وكتاب

المحاضرة للسيوطى (٦) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر

منها فى سائر البلاد وبقاياها فى مصر المقرئى والمحاضرة والقرماني ٦ : ٥٥

الى عَيْذاب فُجَّة فالبلد الحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط في بُكْرَة يوم قارسِ برْدُه ، وكانت العمارَة متصلة في طريقنا على شاطىء النيل ، فاجتزنا ببلد يعرف بِمُنْيَة ابن خصيب^(١) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجتزنا ببلدة يقال لها أَنْصَا وهي تبعد عنه بمرحلة طويلة^(٢) فيها شجر اللبَخ^(٣) الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العمُد والصخر المَجْمَل بالنقوش والرسوم ، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكنا لسَحْرَة فرعون ،^(٤) ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز^(٥) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات اسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته مَلِكَة يقال لها دلوكَة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص ،^(٦) مع أن الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التى يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربى^(٧) وفيها قح مشهور برزانة حبه^(٨) ثم بأسبوط وهي من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصرى الذى يُحْمَل إلى سائر البلاد^(٩) وهو عُصارة الخَشْخاش الذى يزرع فيها^(١٠) وفيما جاورها من البلاد ، ثم

(١) ابن جبير ٥٤ (٢) تقويم البلدان ١١٥ (٣) المقرئى ١ : ٢٠٤

(٤) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار بمعنى الحكايات التى لا طائل

تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقا بها (٥) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرمانى ٥٧٦

(٦) المقرئى ١ : ٣٨ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢ (٨) تقويم البلدان ١١٣

وابن جبير ٥٧ (٩) القزوينى ٩٩ (١٠) تقويم البلدان ١١٥

ركبنا مرحلتين الى إخميم وهو بلد مشهور فيه البرّبا العظيمة التي صُوِّرَ فيها ملوك مصر^(١) وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في بُرج العقرب،^(٢) وهي مرفوعة من صخور منحوتة، وفيها أربعمون سارية مزينة بالرسوم والنقوش،^(٣) وعليها سقف من الحجر مُعشَى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرّزُ إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخَط المُسند لا يُعَلِّم ما هو، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظام الأمور، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دندرة وهي مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها برّبا عظيمة من آثار الفراعنة يُحْفُّ بها نخل كثير،^(٤) وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحّة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة في زمن كان به ظلام وجاهلية للناس، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مقامهم في مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أنّ للقبط في فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصر وأمة، حتى ذهب أفلاطون في بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أُنَى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التي بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم

(١) القرماني ٦ : ٦٦ - (٢) ابن بطوطة ١ : ١٠٤ : (٣) القزويني ٩٤ وابن جبير

(٤) المقرئ ١ : ٢٣٣

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم
نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يفقلوا عما وجب عليهم
نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا بأن يستبقوه على الأيام صلة
دأمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان «الحجر»
ليأمنوا اتصاله بنا وافادتنا به الغرض الذي شغلهم قبلنا من الحكمة والفوس
على أسرار الطبيعة . وإنما أفسد هذه الصلة علينا العفاء من سنه الغلب في
الناس ، إذ يتعاقبون في الأرض دولا بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال .
وتحتاج لحفظ نوعها أن تُبَيِّد الجيل الذي كان من قبلها وتُسبَل على آثاره
سِرِّ المَحْو والعفاء ، وهذا هو السبب الذي قطع الآخرين عن الأولين ،
وعمى علينا قراءة رموزهم إن تبدُّ لنا غوامضها تفدنا علما واسعا من
حكمتهم ، ونبا صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من
صور على الحجارة مُودَعَة هذا العلم تنظر إلينا بيون قد غابت تحت غبار
القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الوجم . كأنى بها تنتظر أن
نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعها
من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت في آثارهم من الصُور (غير الأوثان التي كانوا
يعبدونها والحيوان الذي دخل في ماتهم بطريق التكريم إلى أن صار له
تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعباذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم
هيئات مختلفة للوكِّ وسوقة منهم تمثلهم في معاشهم وأعمالهم وفروض
دينهم وصنائعهم وسائر أشياءهم ، وليس بينها صورٌ تمثل أناسا غيرهم من
الأمم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط والكنعانيين

والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خُطَّةٌ مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح في دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغنام مصرهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره باديئهم الجذباء من نعمة العمران .

عود إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقى ، وهى من أعظم مدائن مصر ،^(١) فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم ،^(٢) وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بلبيس ،^(٣) وربما كانوا فى أسوان أكثر منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قریش وقحطان وزرار بن معدٍ من ربيعة ومضر ،^(٤) وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة^(٥) أنهم غزوها فى عهد الفراعنة الأولين واستقروا بها زمناً فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجرىات السفن عليه ،^(٦) (وهى المعروفة بالجنادل والصخور) فتنتقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات

(١) المقرئى ١ : ٢٣٦ وابن بطوطة ١ : ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١
(٣) المقرئى ١ : ٨٠ (٤) المسعودى ١ : ١٩١ (٥) المسعودى
(٦) المسعودى ١ : ٤٧ وابن حير ٦١

الجبشة إلى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع
التجار فيها وتوارد الحجاج إليها في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل ،
ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي مفازة
قاحلة لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جنَّ الليل علينا ^(١) ثم
نُفَوِّزُ إلى ورود الماء من آبار أو مناهل لانكاد نترك فيها جرعة ماء بعد
سِقاية دوابنا ، وكنت إذا أصابنا رُقْدَةٌ من حرٍ أجلس في هودج على ظهور
الجمال وأرعى عليه الأستار محركا للهواء فيهون على احتمال عنتها الشديد .
إلا أن صحبني من لدن السلطان كان يبرِّح بهم العطش ويُجهد دوابهم في
الأيام الآتية ، لأن السَّموم كانت تنشَّف المياح في الأُسقية ، فكأثوا
يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبرة فارغة من الأحمال ويُعطشوها قبل
الورود ثم يوردوها على الماء نهلا وعَلَلًا حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا أفواهها
كيلا تجرقتبقي فيها الرطوبة فاذا نشفت الأُسقية نحرروا بضعة أبرة من
هذه الجمال وسقوا خيلنا مما في بطونها ، ^(٢) وفي هذا من المشقة ما لم ينزل
بنا أشدُّ منه في جميع ما طرقناه من البلاد ، ولم نزل في مكابدة عنائه الشديد
وقد أضرَّ بنا الحرُّ وأخذ منا مأخذَه حتى سهلَّ الله وصولنا بالسلامة إلى
عيذاب ، والحمد لله على جميل ما أولاه . حمداً يبلغ رضاه . ويستفيض
النعمة من علياه .

وهذه المدينة هي آخر بلاد مصر ، ^(٣) وعاملها مفوض من لدن الليث
ابن الفضل الأيووردي ، وهي موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزويني ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة

أن مبانيها أشبه بيوت القرى منها بيوت المدن، ^(١) وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء، ^(٢) وليس لأهلها حرفة للتعيش إلاّ تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلُبات واحداً مجلبة وهي ملفقة الانشاء، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخيطنون الخشب بالليف، ويضعون خلالها دُسرًا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والثورة، ^(٣) فتستمر عرضة للخطر وآفة للحجاج البيت، يفرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة ^(٤) ولما أخذت فيها نصيباً من الراحة ركبت البحر ثلاثة أيام إلى جدّة، وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس. وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلاً لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين، ^(٥) وهي أحفل بناية في المدينة، فكشفت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (اسراعاً في موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة في صباح اليوم الذي وصلت فيه إلى جدّة، فبلغته في جوف الليل ثم سرّيت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفتدة الصالحة، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله تعالى في موضع استجابة الدعاء ^(٦)

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المقرئى ١: ٢٠٣ (٣) ابن جبير ٦٨
والمسعودى ١: ٧٨٠ (٤) المقرئى ١: ٢٠٣ وابن جبير ٧١ (٥) أى سنة
١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣ (٦) ابن بطوطة ١: ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

من البيت العتيق ، والحمد لله عزّ وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت
الكريم

في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد^(١) بين الجبال تسع من الخلق مالا يعلمه إلا الله سبحانه ،^(٢) لأن الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مئتي ألف في الموسم ، إذ كان الحج مفروضاً على المسلم المستطيع في العمر مرة لقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ،^(٣) فلو قدرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف ، وقدّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة في عمره ، ويقال في اجتماع الناس إليها من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السلع والمأكّل والبضاعات في ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق^(٤) في العراق كلّها ونال كل واحد من أهلها نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى^(٥) وهو إلى الشرق الشمالي ، ومنه يذهب الذهاب إلى الحجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين . ثم باب المسفل وهو

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧ (٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران (٤) ابن جبير ١١٩ (٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن

إلى الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح ، ثم بابُ العُمرَة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبالُ مكة قد مثّلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرُها جبل حِراء وهو الذي اهتز حين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضی الله عنهما فقال له « أثبت حِراءُ فما عليك إلا نبيٌّ وصديقٌ وشهيدٌ »^(١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يَختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق^(٢)

وكفى هذه البلدة شرفاً أن بناها آدم (عليه السلام)^(٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التي هي معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله في جميع العالم . فما تبرّكت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحي^(٤) التي فيها بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) بحدیجة أم المؤمنين (رضی الله عنها) والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد^(صلى الله عليه وسلم) ، تبرّكت بلمسه وتقبيله ، وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذی الجناحين ودار الخيزران التي قدّمت لك ذكرها في الرسائل السالفة ، وهي على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأبحر ،^(٥) وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذي أوى إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودی ١ : ٣٠٧ و ابو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير

والازرقی (٥) الاغانی ٣ : ١١٦

ثور^(١) الوارد ذكره في القرآن ، ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لي مزار بعض المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة .
وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حزين الملائكة لقوله تعالى (وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل^(٢)) ، وقد أخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جرهم وكانت سداية البيت ومفاتيحه معهم ، وإلى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي بقوله^(٣) .

وكننا ولاة البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر
كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا أنيس^٥ ولم يسر بمكة سامر
ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم وإسماعيل ماثلة^(٤) فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في قوله :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله

(١) ابن جبير والانس الجليل (٢) المقدمة ٣٠٦ والمسعودي (٣) الأغانى ١٣ : ١٠٨ و ابو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧ وفي مروج الذهب ١ : ٢٠٣ انه ثابت بن اسماعيل ولعل في احدى الروايتين أو نتيهما تحريبا وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله

فألتقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر
وفي العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان في زمن

النبي صلى الله عليه وسلم . (٤) المسعودي ١ : ٣٠٥

ابن الزبير (رضى الله عنهما) فنزع عن كُسوته المسوحَ والأنطاعَ وكساه
الديباج الملوّن واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه
حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم ،^(١) فلما رماه يزيد بن معاوية
بالمَنْجنيق بعث إلى صنّعاء في الفضّة والكِلْس فحملها ، ثم شرع في البناء على
أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ، فأكاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج
القتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامى ، وأحرق مكة ورمأها بالمَنْجنيق
حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة من شرور الأتفس
وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على
الصفة التي بنتها عليها قريش^(٢) في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل
النبوة ،^(٣) فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرّم مبنى بالحجارة الصماء السوداء مفروش بالرّخام
المجزّع ، وفيه مُمدضخمة من الساج ، وسقفه مُغشّى بالحرير الملوّن ، وهو
قريب من التريّيع ، ونصفه الأعلى من الفضّة المُذهّبة^(٤) وله أركان أربعة
أولها الركن الشرقيّ الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا
يُدري قدر ما استتر من الحجر في الركن ،^(٥) وسعته الظاهرة ثلاثا شبر
وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده^(٦) على ما هو
معروف عند الكل ، ثم الركن العراقيّ وهو شماليّ . ثم الركن الشاميّ وهو
غربيّ . ثم الركن اليمانيّ وهو جنوبيّ . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون

(١) الابشيبي ١ : ١٥ (٢) المقدمة ٣٠٧ (٣) ابو الفداء ١ : ٢٠٨

(٤) ابن جبير ٨١ (٥) ابن بطوطة ١ : ٣١٣ (٦) المسعودي ١ : ٣٥٥

أما الآ الركنَ الشرقيّ فإنه يزيد عليها ذراعاً في الارتفاع^(١) لانصباب
السطح إلى الميزاب،^(٢) وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعاً،^(٣) وبأبها
في الصّفح الذي بين الركن العراقي والركن الشرقي على أحد عشر شبراً
من الأرض، وهو من الساج الملبّس بالفضة والذهب المنقوش،^(٤) وطولُه
ست أذرع وزيادة، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود
ويسمى ما بينهما المُلتزم وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه
عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل، وقد
أخبرني أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خلوّاً من طائف به أو
مصلّ، وأخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشمائه المقدسة
أنّ في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيماً لها،^(٥) إذ كانت
أول بيت وُضع للناس فيه آياتُ يناتُ «مقامُ ابراهيم» ومن دخله
كان آمناً.

وفي الركن العراقي المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهي بالراقى عليه
إلى سطح البيت، وتحت قبوّه فيه حجر مغشّى بالفضة^(٦) تبرّكتُ بزيارته
ولسه وهو مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب
في صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموئجه رُمخامة بل رُمخامتان
خضراوان فيهما نُككتُ يميل لونهما إلى الاصفرار^(٧) حتى يُخيّل للناظر أن
ذلك تجزيع بأيدي الصناع، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبرُ هاجر

(١) ابن بطوطة ١: ٣٠٧ (٢) ابن جبير ٨٠ (٣) الكنز ١٢١

(٤) العقد الفريد ٣: ٣٥٩ (٥) القزويني ٧٧ (٦) الماوردى ٢٧٨

(٧) ابن جبير ٨٦

أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رُخامة خضراء أيضاً، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئرمزم، ^(١) وهى البئر التى شرب منها الخليل عليه السلام ^(٢) وداخلها مفروش بالرُخام، وعمقها فيما يقال إحدى عشرة قامة، أربع فضاء وسبع ماء، وماؤها لمن شربه كما ورد عنه «طعام مُطعم وشفاء مُسقم» .

أما الحرم فانه يُحَدَق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عُمد من الرُخام، ^(٣) وله صوامع سبع، أكبرها فى دار الندوة ^(٤) وأصغرها على باب الصفا، وهو أكبر أبواب الحرم، ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة ^(٥)، وشاهدت فى بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصارى ^(٦)، نسخته بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك، ولا أدرى فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك، لأنه لم يكن للحرم فى تلك الأيام جدار، وإنما كان موضعه دوراً ^(٧) لم تتم زيادتها فيه إلا فى خلافة الوليد بن عبد الملك، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا فى خلافة المهدي (رحمه الله)، وهو الذى زينه بالرُسوم، ^(٨) وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع. ومما كُتِب على سارية منه خارج باب الصفاء (أمر عبد الله

(١) تقويم البلدان ٨٧ والشريشى ٢ : ١١٤ (٢) فى العقد الفريد ٣ : ٣٦٠
 أن سقفها قبو مزخرف بالسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان
 من رخام متلاصقان (٣) فى العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين
 نحو عشر أذرع (٤) ذكرها الاتليدى ٧٦ (٥) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣
 (٦) الكندى وابن جبير ١٠٢ (٧) المقدمة ١٠٨ (٨) ابن الاثير
 والحئيس ٢ : ٣٣٠ وابن جبير ١٠٧

محمد المهدي (أصلحه الله) بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون
الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة»

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذي الحجة . ومررت
في طريقى إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم تغربوا بالأسفار . ولا سبق
لهم عهد بمحاضرة الأمصار . فوجدتهم ^(١) يقولون بالقيافة والزجر والعناء
والبومة التي تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ،
وبلغنى أن بجوارهم أعرابا لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا
بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجميم كفا مخففة فينادون الرجل
يار كل ، ^(٢) فوصلت من مكة إلى بطن مر ^(٣) وهو واد خصيب ذو عين
فؤارة ، ثم عطفت منه الى عسفان وهي مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير
من شجر المقل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان ^(٤) (رضى الله عنه) ، ثم
ركبت الى الخليص وهو موضع في بسيط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين
كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل وينهم
نسب لم ترم فيه العصا ، ^(٥) ثم امتد بنا السير من خليص الى بدر وهي
قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القلب وقعة
النبي (صلى الله عليه وسلم) المباركة التي أعز الله تعالى بها الدين وقهر

(١) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الاسواق (٢) الأغانى ٩ : ١٣٩

(٣) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥ (٤) ابن جبير ١٨٦ والأزرقى

(٥) تزيين الأسواق ١١٤

المشركين ،^(١) ثم أتجهت إلى الصفراء في صدر النهار ، وهي تبعد عن بدر بريدا ثم إلى الرّوحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان ،^(٢) ثم رحلت أفوز في الهضاب والبطح حتى أقبلت على المدينة المنورة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرّم وصلت في الروضة التي بين القبر المقدّس والمنبر الذي كان موطىء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت إلى قصر الامارة حيث حلّت ركاب الرشيد ، فأصبته في مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة ، وهو مزخرف بالصدف^(٣) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد ،^(٤) فلما وقفت بين يديه بادرني بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمني به الأنبر زور ، فأخبرته بما توسّم في غايتها من الخيروما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر والقرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إليّ ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به من قبل . ولما أذن لي بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ، ليس من تجافهم إليّ عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدلسين . التي تصادف محلا في قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق

(١) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزويني ٥١

(٢) ابن جبير ١٩١ (٣) المقدمة ٣٥٧ (٤) ابن خلكان ١: ٣٨٣

هذه المواطن المقدسة أن أذكر لك شيئاً عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول . إني وجدت المسجد المكرم قائماً على أعمدة من الحجارة اللامعة، وسقفه من الساج المزين بالرسوم،^(١) وجدرانه منزلةً بفصوص من الفسيفساء^(٢) تمثل أشجاراً وثماراً وأزهاراً بأبداع ما يكون من الصناعة، وهي من عمل الروم والقبط^(٣) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك،^(٤) ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزرة إلى ثلثها برُخام بديع النحت غريب النعت، وأعلىها مضمخ بالمسك والطيب،^(٥) ورأيت القبر المقدس مبنيًا برُخام يقال إنه من عمل وِردان^(٦)، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلي أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلى أبي بكر رضي الله عنهما، وعليهما قناديل من فضة وذهب،^(٧) وبين الركن الجوفي والركن الغربي من المسجد موضع عليه سترٌ مُسَبَّلٌ يقال إنه مهبط جبريل^(٨) عليه السلام .

أما المدينة المنورة فإنها بتكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها يثرب بن وائل من ولد سام^(٩) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة

(١) ابن جبير والسيوطي (٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢ (٣) القزويني

٧١ (٤) ابن الاثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧١

(٥) ابن جبير ١٩٢ (٦) الأغاني ١٧ : ٨٤ (٧) ابن جبير وابن بطوطة

١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧ (٨) ابن جبير ١٩٣ (٩) الاتفاق في تفسير القرآن

على قدم اختطاطها وعلوّ شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد ،^(١) ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة ،^(٢) وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السّفْرُ المخبرُ . ماهو أعظمُ منها في ديار العرب ، وأعظمها قصرُ للمقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالجرف ،^(٣) وهو مجصّص الظاهر والباطن ،^(٤) وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكلس وأبوابه من الساج والمرعر^(٥) وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)^(٦) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد عليّ (عليه السلام) وفي موضع هذه القبور رُخامة مكتوب عليها^(٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله مبيدِ الأمم . وُحِّي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضی الله عنهما وعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد رضی الله عنهم أجمعين . فيا لها من قبور ما أشرفها وأكرمها . وإلى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قُبَاء^(٨) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس على

(١) ابن جبير ٢٠٠ (٢) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨ (٣) المسعودي ١ : ٣٣٣
 (٤) المقدمة ١٧٨ (٥) المسعودي ١ : ٣٣٥ (٦) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩
 والمسعودي ٢ : ١٨٢ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ياقوت وتقوم اللدان

التقوى والرضوان، ^(١) وفي صحّنه شبهُ محراب على مصطبة يقال إنه أولُ موضع ركع فيه ^(٢) النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي قبلته بئرٌ معروفةٌ بيئر أريس يقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) تفلّ فيها فماد ماؤها عذبا صافيا بعد أن كان آجنا أجابا، وفيها سقط خاتمته صلى الله عليه وسلم من يد عثمان ابن عفان (رضى الله عنه). هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدّسة والقليل دليلٌ على الكثير. وقد خصّ الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخصّ به غيرها من البلاد. وهو مالك الملك لا ربّ غيره ولا معبودٍ سواه.

الرشيد والبرامكة في مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه اليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله إلى الرقة من لدن الرشيد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم. كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة، وعلمت فيما نقل إلى أبو زنج الهمداني صاحب جعفر ^(٣) (أيده الله) أن الرشيد انما تحول عن البرامكة خوفاً من ميل الناس إليهم بما أعقدوا عليهم من الجود والكرم، فانه كان إذا جلس في مكة للعتاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطائه، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد في سعة

(١) أبو الفداء ١: ١٣٢ (٢) ابن جبير ١٩٩ (٣) الأغاني ١٧: ٣٣

الهبّات حتى ذهبت أعطياتهم مثلاً بين الناس فانصرفوا عن مدح الخليفة إلى صوغ الشعر في مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات^(١) وينشدون .

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجودٍ أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم ، وانطلق
المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة تهويل أمرهم
على الرشيد فخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة رفعوها إليه
وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات^(٢) .

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا بن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينك حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الفرس لها مثلاً ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك الحد

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من
بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيعة
بمحضرهم للمأمون بمد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤمن
فصير ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء في
مدحهم له^(٣) .

(١) الفخرى (١) ابن خلكان ١٥٢: ١ (٢) (٣) السيوطى

أبو أمين ومأمون ومؤمن أكرم به والدًا برًا وما ولدا
ثم إنه ولي المأمون خراسان وهمدان إلى آخر المشرق، وأحضر
القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن
والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء،^(١) وضم إلى
القاسم الجزيرة والثغور والمواصم، وفرق في الناس نحو ألف ألف دينار^(٢)
ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحط من قدر البرامكة وما وقع في
نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان.
وهو يظن أنه يفعل هذا أمناً لمكروه من ناحيتهم ورداً لمكيدة خافها من
وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون والمؤمن. مع
أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا فيه ومنما
لوقوع الشقاق بين أولاده.

وكان مع ما في قلبه من الموجدة يصانهم ويظهر استرسال نفسه
إليهم حتى لا يفظنوا إلى ما يريد بهم من المكروه، فإذا جلسوا إليه أظهر
الرضا عنهم وأقبل بالمطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء. فكان
يفرهم ذلك منه إلا جعفرًا (حفظه الله)، لأنه كان أعلم الناس بما في نفسه
من حب الأثرة حتى إذا أهذاه مسروقًا غلامه^(٣) قال لي والله إن في إهدائه
إلي هذا الغلام حيلة لم يخف على أمرها. فانه يوهنا برضاه حتى لا نظن
به سوءاً فيما داخله من الحسد، وقد أخبرني جبريل بن بختيشوع أن
الرشيد إنما تحول عنهم بمحل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على

(١) ابن الأثير ٦: ٦٨ (٢) ابن الأثير ٦: ٦٢

(٣) الأغانى ٣: ١٤٠ والالتلیدی ١٦٨

بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوفه استتواءهم في فارس وخراسان
وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه جبا لأهل البيت ، ويشكيهم لديه
باحتيال مال الجباية^(١) وتصرفهم في الأمور بما يشاءون ، والملك لا تصبر
على مثل ذلك فأوغر صدره خوفاً منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم^(٢).

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ،^(٣) وقد تحول
عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في
الاسلام وتزلفُ الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فإنه غير مضر
بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخر في الملة إلا أن يكون ضعيف البصيرة
فاتر الهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن
سيفهم خادم نصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم
وكثرة الضياع عندم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة في
الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه في من أموال المسلمين كما
يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن
يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا أن يدب فيه الطمع ويمد عينه إلى ما
أدخروا لولدهم بعد أن دبّروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية بهله
مقدار الثفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف أنه
يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقتنا ملكه ومهدنا أمره حتى
يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيّه ليكون

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢ (٣) في الأغاني ٥ : ١١٣

ان الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام

ذلك وبالأَسْرِعَاءَ عليه^(١) فقلت يا سيدي ليس للرشيدي عنكم مرغَبٌ ولا
أظنه يحرم دَوْلته عنائتكم ، فقال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ،
فإن يجاهرنا بالمُدوان يقيم في وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما
بنفس جمفر من التأثر أخذت في تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع
الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ تأثر صدره ، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغله
من القلق ، وأمرني بالأفارق بابه في ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتقر عن السعاية به إلى الرشيدي ساعة من
ليل أو نهار ويخوفه منه التحمل في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس ،
فكان الرشيدي يحتال باستبقاء جمفر عنده والميل إليه بتصنع العطف
ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه في ذلك الوقت
قد ألقاه كل القلق ، فرأى أن يفصلني عن البرامكة بوجه لا يُردُّ على الملوك
بأن يوجهني إلى الرقة في كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا
من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى أنفاذك برسائلنا ، فكن عند
رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلى البرامكة
ألا أخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه
العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالجزيرة في اليوم الذي نزل الرشيدي فيه السفن
إلى الصمر الذي بناه الأتبار^(٢) وكان الرشيدي قد غلب عليه الخوف في
ذلك الوقت حتى كان ذات تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم^(٣) فاستبقى

(١) الاتليدي (٢) ابن خلكان ١٥١ : ١ (٣) المسعودي ٢ : ٢١١

الأطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع،^(١) وقد طوى عنه سرّاً ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم،^(٢) وأنا اليوم أسير حيثما حتى لا يفوتني الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج .

الرياسة العائرة

« أصبت بسادة كانوا عيوننا بهم تُسقى إذا انقطع المنام »
أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جارٍ في الآفاق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس ، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت البلية رسوم محاسنها ، حتى كأنها طلل من هذه الاطلال التي يهجرها الأنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرقة قد وافاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني إليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله الى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقني عنده ويمعني من الرجوع الى الحضرة لما داخله في من الريبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة ، فأصابني من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحين ، لأني ما كنت أراني ناجياً من وقوع الغدر بي ووصول المكروه الى . ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدت رسالته حقها من الاخلاص ،

(١) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد

(٢) الاتليدي والفخرى